

تأسيس مالك بن نبي للنقد الثقافي العربي قراءة ثقافية في عنوان
وشخصيات رواية لبيك حجّ الفقراء

*The foundation of the Arabic cultural criticism by Malek
Bennabi. cultural reading in the title and characters of
'labbaika Hadj fokaraa' novel*

ط.د توفيق علواني*

د. مجاهد بوسكين *

تاريخ النشر: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2023/10/04	تاريخ الإرسال: 2023/07/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تسعى هذه المقالة إلى إبراز الدور الأساسي والمحوري الذي قام به المفكر والفيلسوف الجزائري مالك بن نبي 'التأسيس للنقد الثقافي العربي، متعرضين بالدراسة والتحليل الثقافي لعنوان وشخصيات روايته الوحيدة 'لبيك حجّ الفقراء'. هذه الرواية التي صوّر من خلالها واقع المجتمع الجزائري ومنه واقع الدول الإفريقية المسلمة الواقعة آنذاك تحت وطأة الاستعمار الغاشم الذي حاول طمس معالم الشخصية المسلمة، وإدماجها في ثقافته الكولونيالية، إلا أنه اصطدم بشعب لا يغير مبادئه مطلقاً ولو دفع حياته مقابل ذلك، هذه العزيمة والإصرار على عدم الاندماج في ثقافات أخرى غير الثقافة الإسلامية مستمدة من مبادئ الدين الإسلامي السمح.

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي، لبيك حجّ الفقراء، الثقافة، الدين، المجتمع.

Abstract:

This comparison is aiming to highlight the pivotal and essential role that the Algerian thinker and philosopher 'Malik Bennabi' played to establish the Arab cultural criticism. Exposing with the study and a cultural analysis of the title and the personalities of his only novel 'Labbaik, haj fokaraa'. in this novel he tried to give a real image of the Algerian society

* جامعة معسكر taoufik.alouani@univ-mascara.dz

* جامعة معسكر boucekinemojahed@yahoo.fr

and then the reality of the African Arabic and Muslim nations which were colonized. This colonizer wanted to obliterate the Muslim personality and integrate in his cultural colonialism. But he collide with people /Nations that never change their principles and beliefs even if they give their lives for that. This determination of no-Islamic culture is taken from our tolerant Islamic principles.

Key words: cultural criticism, Labbaik haj fokaraa, culture, religion, society.

*** **

المؤلف المرسل: توفيق علواني taoufik.alouani@univ-mascara.dz

1. مقدمة:

إنّ المتتبع للحركة الثقافيّة والأدبيّة في الجزائر غداة الاستقلال يلاحظ ركودا سببه الوضع الانتقاليّ الصّعب الذي عاشته الجزائر خلال هذه الفترة؛ ممّا أثر سلبا على الإنتاج الثقافيّ والأدبي على غرار بقيّة المجالات الأخرى، الاقتصاديّة منها والاجتماعية والسياسيّة. فقد غادر العديد من الأدباء والمفكرين البلاد عقب الاستقلال لأسباب متنوّعة، منهم المفكّر والفيلسوف 'مالك بن نبي'، كما يلاحظ على الكثير منهم نوع من الفتور؛ إذ كانت الكتابة عندهم إبان الثّورة التحريرية تعدّ أداة من أدوات المقاومة ثمّ بعد الاستقلال تغيّر الوضع فلم يهتمّوا بالقضايا الجديدة التي أفرزتها هذه المرحلة كالفقر والبطالة والنّزوح الرّيفي وغيرها .

لم يعر 'مالك بن نبي' الكتابة القصصيّة كبير اهتمام على غرار معاصريه من الكتّاب بقدر ما اهتمّ بالقضايا الحضاريّة فبحث عن أسباب تخلف المجتمعات العربيّة والإسلاميّة بصفة عامّة وطرق اللّحاق بالركب الغربيّ المتطوّر. وصل 'مالك بن نبي' إلى أنّ الحضارة العربيّة وصلت إلى طريق مسدود ولا يمكن لها تجاوزه إلا بالتشبث بالإسلام لتقويّة مسارها، فأوضح لنا أنّ سبب التخلف في العالم الإسلاميّ لا يرجع بالضرورة إلى الاستعمار -وإن كان له نصيب في ذلك - بل إلى القابليّة للاستعمار، فركّز على هذا الجانب في أغلب مؤلّفاته.

وتتمثل إشكالية البحث في: لا ريب أنّ النقد الثقافي العربي استمدّ أسسه ونظرياته من النقد الثقافي الغربي الذي ثار على كلّ ما هو نخبويّ واهتمّ بالمهمّش وبأدب الأقليات، وتشير بعض الدراسات إلى أنّ 'مالك بن نبي' كان سباقاً للتأسيس للنقد الثقافي العربي. فكيف كان له هذا السبق في التأسيس لهذا الوافد الجديد؟ وما هي المنطلقات والأسس التي بنى عليها رؤيته الفكرية في روايته 'لبيك حجّ الفقراء'؟ وأين يكمن البعد الثقافي في عنوان وشخصيات روايته؟

ومن خلال هذا الموضوع الموسوم: تأسيس مالك بن نبي للنقد الثقافي العربي - قراءة ثقافية في عنوان وشخصيات رواية 'لبيك حجّ الفقراء' -، سنحاول أن نبرز دور هذا الفيلسوف في تشكيل معالم النقد الثقافي العربي، وبيان أهمّ الأنساق الثقافية المخبوءة في عنوان وشخصيات روايته 'لبيك حجّ الفقراء'.

وللإمام بالإشكالية سنعمد التحليل القائم على الرصد في محاولة تتبّع إسهامات المفكر مالك بن نبي ' في التأسيس للنقد الثقافي العربي، والاستقراء القائم على التحليل الثقافي أثناء التّعرض لعنوان وشخصيات روايته 'لبيك حجّ الفقراء' مع الاعتماد على الدراسات السابقة التي تعرّضت لذلك.

2. نشأة مالك بن نبي: (1905-1973)

ولد مالك بن نبي في 05 ذي القعدة 1323هـ الموافق لـ: 01 يناير 1905م بمدينة قسنطينة، انتقلت أسرته إلى مدينة تبسة ثمّ التحق بها بعد مدّة، لما انتقل إلى تبسة حفظ ماتيّسر من القرآن الكريم، وأتمّ تعليمه الابتدائي والمتوسّط (الإعدادي) وأكمل دراسته الثانوية في قسنطينة عام 1925م. في هذه المرحلة - مرحلة الشّباب - تأثر بالحركة الإسلاميّة التي كان يقودها العلامة عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، والتي كانت تروم تحرير وتغيير عقول الجزائريين بتخليصهم من فكر العقيدة الباطلة، أو التراث الوثنيّ، والشّعوذة وغيرها من الأمور التي تسجن عقولهم في ظلمات التخلّف الفكريّ، وكذلك هدفت هذه الحركة إلى تنويرهم وتحصينهم ضدّ الفكر الصليبيّ اللاتينيّ الذي يسعى إلى طمس الشّخصيّة الجزائريّة العربيّة الإسلاميّة.

أدرك المستعمر الفرنسيّ خطورة أفكار مالك بن نبي المتشبع بالفكر الإسلاميّ، فعملت على التّضييق عليه وبالتّالي وضعه تحت ضغط نفسيّ رهيب، سافر بعدها إلى فرنسا ليكمل دراسته إلّا أنّه منع من دخول معهد الدّراسات الشّرقيّة، فسجّل في مدرسة اللّاسلكي وتخرّج منها عام 1935.

إنّ احتكاكه بالمغتربين والمجتمع الغربيّ بصفة عامّة ولّد فيه حبّ التّحدّي وعدم الاستسلام، ودفعه إلى مواصلة نشاطه الفكريّ والثّقافيّ.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه التّجربة الفكريّة والميدانيّة العميقة والعنيفة بأبعادها الرّوحيّة والفكريّة والاجتماعيّة شكّلت فكر مالك بن نبي حول مفاهيم مرتبطة بالإنسان والثّقافة والحضارة واستطاع من خلال - عقيدة الإسلام الموحّدة وفكره المنفتح على العقل وروحه الاجتماعي - أن يحدث نقلة نوعيّة في الفكر الإسلامي الحديث، كما أنّ فهمه الدّقيق لروحي الحضارتين الإسلاميّة الغربيّة والاستيعاب العميق لأسسهما الفكريّة مكّن مالك بن نبي من مواجهة الحضارة الغربيّة غير أنّه يعتبر المشكلة في المسلمين¹.

1.2 مؤلفاته:

كان إنتاجه الفكريّ غزيراً، فخلف أثارا قيّمة، نذكر منها: (الظاهرة القرآنيّة) عام 1946، ورواية (لبّيك) عام 1947، وهي رواية فلسفيّة، ثمّ (شروط التّهضة) عام 1948، (وجهة العالم الإسلاميّ)، (الفكرة الأفروآسيويّة) عام 1956، (مشكلة الثّقافة) عام 1959، (الصّراع الفكريّ في البلاد المستعمرة) عام 1960، وهو أوّل كتاب كتبه مالك بن نبي بالعربيّة مباشرة بخلاف جلّ كتبه التي ألّفها باللّغة الفرنسيّة. وفي عام 1960 ألّف كذلك كتابه (فكرة كومنولث إسلاميّ)، (ميلاد مجتمع) عام 1962، (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلاميّ) عام 1969، (مشكلة الأفكار في العالم الإسلاميّ)، (مدنّرات شاهد القرن) عام 1970، (المسلم في عالم الاقتصاد)، ونشر له بعد وفاته: (دور المسلم ورسالته في القرن العشرين) عام 1977، (بين الرّشاد والتّيّه) عام 1978، وله أيضاً آثار فكريّة لم تطبع، وهي على شكل مخطوطات مثل (دولة مجتمع إسلاميّ)، (العلاقات الاجتماعيّة وأثر الدين فيها)، (مجالس تفكير)، وغيرها .

3. سبق مالك بن نبي في التأسيس للنقد الثقافي العربي:

إن المتمعن في مؤلفات مالك بن نبي سيدرك أنه دون معاصريه من المفكرين العرب والمسلمين، قد أولى اهتماما أساسيا وعميقا للإنسان المسلم، بصفته تكويننا شخصيا وواقعا اجتماعيا، متابعا في ذلك علله ونقائصه، ومحللا أبعاد الظواهر والمشكلات الاجتماعية التي تحيط به، ومقترحا الحلول الناجعة في إطار من الرؤى المستقبلية المتفائلة. وإجمالا كان ابن نبي في كل فكره مدرسة منفردة فهو أول من كتب، في العالمين العربي والإسلامي، عما يسمى اليوم بالتنمية، وأول من تناول بشكل منهجي مستقل مشكلة التراث والمعاصرة، فضلا عن كونه من القلائل الذين حرصوا على تأكيد أن ثمة طريقا ثالثا للنهضة، غير الطريقتين الرأسمالي والاشتراكي، وقد كان له في كل ذلك أطروحته وأفكاره التحليلية والشخصية المتميزة².

ولعل مالك بن نبي الدور البارز في التأسيس للنقد الثقافي في الساحة العربية النقدية عامة، وفي الجزائر خاصة، وذلك قبل أن تسند مهمة التأسيس لعبد الله الغدامي. فقد قام مالك بن نبي بإرجاع وعي البناء الحضاري إلى الثقافة في مجرياتها المكتسبة للإسهام في البناء، معتبرا أن الفكرة الرئيسية لكل جيل ترتكز على الوعي المعرفي بوصفه وعيا مشتركا بين كل الثقافات بما يعزز تقدم العلوم والمعارف الإنسانية على وجه التحديد. وفي هذا الشأن تقول جميلة بكوش: "تشير الدراسات العربية: إلى أن عبد الله الغدامي هو أول من أسس النقد الثقافي في الساحة العربية، وفي أثناء تمحصنا من هذا الموضوع تبين لنا أن مالك بن نبي له إسهامات كبيرة في هذا المجال منذ النصف الثاني من القرن العشرين، أي قبل عبد الله الغدامي منذ ما يزيد على نصف قرن، ولعل من يتفحص كتابات مالك بن نبي يدرك المنهجية المتبعة لمواجهة الاستعمار من حيث الفكر الحضاري، وهي الرؤية التي ركزت على نبذ التبعية الحضارية للغرب، وفي ذلك إشارة منه إلى أنه سابق لأراء سبيفاك (Spivak, Gayatri) حين استند النقاد العرب والغربيون إلى نظريتها (التابع) التي عكست تبعية الثقافات القومية للثقافة الكولونيالية الجديدة..."³.

بعدما أفل نجم النقد الأدبي عند الغرب، وظهور النقد الثقافي الذي رحّب به كوافد جديد إلى السّاحة النّقدية وكبديل عن تلك المناهج النقدية التي راوحت مكانها في تحليل النّصوص الأدبية، إلّا أنّ هذا التّرحيب لم يحظ به عند النّقاد العرب المعاصرين الذين رأوا فيه خطرا داهما؛ فهو لا يهتمّ كثيرا بالأدب النّخبويّ بقدر ما يهتمّ بالمهمّش والأقلية. وخاصّة ما يعرف بالطابوهات الثلاث (الجنس، الدين، والسّلطة).

وبحكم ما عاشته المنطقة العربية في أواخر التسعينات من تغيّرات وتطوّرات ثقافية وسياسية واقتصادية، منها حرب الخليج "عاصفة الصحراء"، وقضية التطبيع مع الكيان الصهيوني، وانهيار الكتلة الشيوعية السوفياتية. هذه التطوّرات والتغيّرات جعلت الثقافة العربية تقوم بمراجعات شاملة وجذرية لنظامها الثقافيّ ووسائل إنتاجه، الأمر الذي أدّى إلى ظهور النقد الثقافيّ. "ومن رحم هذه المراجعات ولد النقد الثقافيّ العربيّ ونقل إلى السّاحة العربية، وكانت هذه السّاحة الثقافية أيضا تشهد التّعايش ونموّ خطاب دينيّ أصوليّ جعلها ثقافة دوغمائية فيلولوجية"⁴.

بيد أنّ نظرة مالك بن نبيّ لقضية الثقافة سبقت هذه المرحلة بكثير؛ كونه نشر في عام 1959 كتابا بعنوان 'مشكلة الثقافة' الصّادر باللّغة العربية.

اهتمّ مالك بن نبيّ بمناقشة أفكار رواد الفكر اللبراليّ ورواد الفكر الاشتراكيّ التقدّميّ، واختلف معهم أيّما اختلاف في منهج وطريقة بناء الشّخصية أو إنسان الحضارة؛ فهو يعتمد على مبادئ وأسس إسلامية محضة، وكذلك لارتباط الثقافة عنده بالحضارة أكثر من ارتباطها بالعلم.

لقد تحلّى مالك بن نبي بثقافة منهجية، استطاع بواسطتها أن يضع يده على أهمّ قضايا العالم المتخلف متجاوزا الطّواهر الطّاغية على السّطوح إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثا عن السّنن والقواميس الكفيلة بتحويل الشّعوب من الكلل والعجز إلى القدرة والفعالية، وهكذا تجاوز مشكلة التّكديس إلى البناء، والحقّ إلى الواجب، وعالم الأشياء والأشخاص إلى عالم الأفكار، انطلاقا من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرّعد: 11)، وأنّ مفاتيح الحلّ عند الدّات لا عند الآخر.

4. مفهوم الثقافة عند مالك بن نبي:

حاضر مالك بن نبي عن الثقافة كثيرا، وكان أول كتاب تحدّث فيه عنها هو كتاب 'شروط النهضة' الصّادر باللّغة الفرنسيّة عام 1949 بباريس، ثمّ قام بتأليف كتاب خاصّ لهذه القضية سمّاه 'مشكلة الثقافة' وهو كتاب صادر باللّغة العربيّة في القاهرة عام 1959.

كان مالك بن نبي يؤمن بدور التّوجيه التّقافي في التّهوض بالأمة، فقد لمس فيهم الإلحاح والرّغبة في إدراك ماهية التّقافة " في المعادي في القاهرة كان يسكن مالك بن نبي عام 1959 مكان الطّلاب يرتادون مجلسه من الحين والحين، وأكثرهم يأتيه مستوضحا مفهوم التّقافة فيما كتب في 'شروط النهضة' وفكرة الإفريقيّة الأسيويّة"⁵.

يشير مالك بن نبي إلى أنّ التّقافة لا تحوي في مفهومها الأفكار فقط بل تحوي أشياء أعمّ من ذلك بكثير كآسلوب الحياة والسّلك الاجتماعيّ، ولعلّ اهتمام مالك بن نبي بالأفكار في تحديد نظريّته للتّقافة مردّه إلى حاجة الوضع العربيّ إلى ذلك " فالأفكار تكون في مجموعها جزءا هاما من أدوات التّطور في مجتمع معيّن، كما أنّ مختلف مراحل تطوّره هي - في الحقيقة - أشكال متنوّعة لحركة التّطور في مجتمع معيّن"⁶.

ويرى مالك بن نبي أنّ التّقافة كمصطلح غربيّ مأخوذ من كلمة culture المأخوذة من الأصل اللّاتيني Cultivare وهي تعني الزّراعة التي تعتبر العمليّة التي تضمّ بين دفتيها عمليّات الحرث والبذر والحصاد والتي تحدّد وتنظّم إنتاجيّة الأرض، وبين التّقافة كصورة لما تفتّقت عنه أذهان المفكرين⁷. وبالتالي فإنّ اللفظة المجازيّة Culture عبّرت عن حركة التّهضة الفكريّة في فرنسا خاصّة وأوروبا عامّة.

لقد اهتمّ مالك بن نبي كثيرا بقضيّة التّقافة، وإسهاماته في هذا المجال هي الأكثر أهميّة وحضورا على مستوى الدّراسات الإسلاميّة، هذا الاهتمام دفع به لأنّ يخصّص كتابا حول التّقافة ويشرح فيه ما توصّل إليه من أفكار وتطوّرات وذلك في كتاب 'مشكلة التّقافة'.

يعزف مالك بن نبي الثقافة فيقول: "الثقافة تعرّف بصورة عملية بأنها مجموعة من الصّفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه؛ فهي إذن المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته"⁸.

هذا تعريف شامل للثقافة يحدّد مفهومها، فهي علاقة تأثر الفرد بقيم مجتمعه الذي ولد ونشأ فيه.

ومن هنا يرى مالك بن نبي أنّ الثقافة عبارة عن فلسفة وقيم أخلاقية فردية، واجتماعية تؤثر في نشأة الفرد؛ بحيث تصبح خاصية مميزة لسلوكه، وبذلك فهي: " المحيط الذي تتشكّل فيه كلّ جزئية من جزئياته..وهي تتمثّل بوظيفة الدّم في جسم الإنسان؛ فهو يتركّب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد هو - البلازما - ليغذيّ الجسد، والثقافة في ذلك الدّم الذي في جسم المجتمع، يغذيّ حضارته، ويحمل أفكار الصّفوة كما يحمل أفكار العامة والخاصة، وكلّ هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموحّدة والأذواق المناسبة..."⁹.

فالثقافة إذن هي: المحيط الفكريّ والتّفسيّ والاجتماعيّ والأخلاقيّ والروحيّ الذي يحتضن الوجود الإنسانيّ في المجتمع، ويدعمه بالخبرة المعرفية والسلوكية والأخلاقية والجمالية... وفي هذا المحيط تتشكّل طباع، وشخصية، وذوق الفرد الثقافيّ محكومة بالسّنن التّفسيّة والأفريقية¹⁰.

تشكّل المنظومة الثقافيّة عند مالك بن نبي من أربع تيمات أساسية هي:

1. التّوجيه الأخلاقيّ لتكوين نمط الصّلات الاجتماعية الرّاشدة.
2. التّوجيه الجماليّ لتكوين الدّوق العام السّليم.
3. المنطق العلميّ لتحديد أشكال النّشاط العام.
4. الصّناعة أو الفنّ التّطبيقيّ الملائم لكلّ نوع من أنواع المجتمع.

1- المبدأ الأخلاقي:

الاجتماع غريزة فطرية في الإنسان، والمجتمع المتحضّر هو الذي يصقل هذه الغريزة ويرفع من مستواها بالأخلاق، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقد جاء الرسول ﷺ ليتمّ مكارم الأخلاق وليرتفع الإنسان عن باقي المخلوقات منزلة.

2- الذوق الجمالي:

يرى مالك بن نبي أنّ للجمال تأثير واضح في الرّوح الاجتماعيّة. يقول في هذا الشّان: " إنّ الأفكار هي المنوال الذي تنسج عليه الأعمال، وهي تتولّد من الصّور المحسّنة الموجودة في الإطار الاجتماعيّ فتنعكس في نفس من يعيش فيه، ومن هنا تصبح صوراً معنويّة يصدر عنها تفكيره. فالجمال الموجود في الإطار الذي يشتمل على ألوان وأصوات وروائح وحركات وأشكال، يوحى للإنسان بأفكاره ويطبّعها بطابعه الخاصّ من الذّوق الجميل الذي ينطبع فيه فكر الفرد، يجد الإنسان في نفسه نزوعاً إلى الإحسان في العمل وتوخّياً للكريم من العادات..."¹¹. فمالك بن نبي يعتبر أنّ الذّوق الجماليّ من أهمّ التّيمات الحيويّة في مكوّنات الثقافة.

3- المنطق العلمي:

يذهب مالك إلى أنّ المسلم لا يعاني من نقص في الفكرة وإنّما عدم الاهتمام بالعمل والحركة، والسبب يعود حسبّه: " لافتقادنا الضّابط الذي يربط بين الأشياء ووسائلها، وبين الأشياء وأهدافها، فسياستنا تجهل وسائلها، وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا، وفكرتنا لا تعرف التّحقيق"¹².

فالمنطق العلميّ يعني أنّ يكون المجتمع فاعليّاً، فيستغلّ ما لديه من إمكانيات وطاقات ووسائل، ويستثمر الفراغ في أمور نافعة.

4- التّوجيه الفئّي أو الصّناعة:

يعتقد مالك بن نبي أنّ المبدأ الأخلاقي، والدّوق الجماليّ، والمنطق العلميّ لا قيمة لها بدون العلم أو الصّناعة، فهو الذي يمنحنا الوسائل اللازمة لتركيب عناصر الثّقافة وتحويلها إلى أسلوب حياة في أيّ مجتمع.

5. التعريف برواية "لبّيك حجّ الفقراء":

تعدّ رواية 'لبّيك حجّ الفقراء' لملك بن نبي إحدى إبداعاته التي أفرغ في قالها جانبا من فكره المنير في مفهوم الثّقافة والحضارة وطرق تقدّم الأمم وازدهارها، على غرار مؤلفاته الأخرى من قبيل: شروط التّهضة، مشكلة الثّقافة، ميلاد مجتمع، في مهبّ المعركة، وغيرها من المؤلّفات التي أسّست بحقّ إلى التّنظير لهضة فكرية واقتصادية.

وهي رواية صادرة عن دار الفكر، دمشق لعام 2009، قام الدّكتور 'زيدان خوليف'¹³ بترجمتها عن الفرنسيّة، مكوّنة من 156 صفحة، وقد أراد بها كما قال مؤلّفها 'مالك بن نبي' لناشرها: "لقد أردت أن أسنّ جزءا مهما من الفلكور الجزائريّ، لذلك بدا لي أنّ مقدّمة قصيرة تعدّ ضرورية حتّى نستطيع وضع القارئ الأجنبي في أجواء الحجّ في الإسلام، فالإنسان يقترح والله يبرئ..."¹⁴.

فأجواء الحجّ لا يعرفها إلاّ المسلم ولا يدركها إلاّ المسلم الذي وفّقه الله لأداء هذه الفريضة.

ويقول 'عمر مسقاوي'¹⁵: "قصّة 'لبّيك' رسمت عمق الرّوح الجزائريّة وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثّقافة والحضارة الإسلاميّة المنشدة إلى منازل الوحي"¹⁶.

استطاع مالك بن نبي أن يقدّم لنا وصفا مفصّلا للمجتمع الجزائريّ بأصالته المعهودة وبساطته ومحافظته على هويّته وشخصيته الإسلاميّة والتي حاول عبثا المستعمر الفرنسيّ أن يطمسها ويذبيها في كيانه الغاصب، حتّى أنّ إبراهيم الذي حاد عن دينه وغاص في برائين القدارة والانحلال عاد لنداء دينه وفطرته وعادات وتقاليد مجتمعه وأمته الإسلاميّة، فهذه كناية على أن المجتمع الجزائري المسلم مهما تعرّض

لمحاولات إدماجه في ثقافات لا تليق به فإنه سيقاومها مقاومة تجعله ينتصر عليها في آخر المطاف وإن طال الأمد، كما حدث مع المستدمر الفرنسي .

يبدو أنّ مالك بن نبي لم يؤلّف هذه الرواية من أجل الإبداع وكفى، ولكنه أراد من خلالها أن يظهر للعيان بأنّه توجد في المجتمع الجزائريّ الأصيل قيم راسخة، وخاصّة الدينيّة منها، يستحيل طمسها، وأنّ هذه القيم هي التي ستحيي حضارتنا من الزوال والاندثار. كما أنّه لم يكن مهتمًا كثيرًا بمسألة الهوية بقدر اهتمامه بالتّقيب عن أسباب الانحطاط والقابليّة للاستعمار. وقد تطرّق في هذه الرواية إلى قضيّة الهوية وكيف أنّها حامية ومنجية للشخصية ومكوّناتها من الانحطاط.

إنّها إحدى إبداعات الأدباء الجزائريّين في الأدب الجزائريّ المكتوب باللّغة الفرنسيّة، وهي رواية تحمل في طيّاتها وعيا ونضجا فكريًا وفلسفيًا وسياسيًا.

وجاءت هذه الرواية مباشرة بعد صدور كتابه 'الظاهرة القرآنيّة' عام 1946؛ حيث يعدّ هذا المؤلّف من أقوى الكتب التي خلّفها مالك بن نبي فكريا وعلميا تحليلا وعمقا¹⁷.

وقد ظهرت هذه الرواية عام 1947م في مرحلة حرجة من تاريخ الجزائر؛ نقصد بذلك أحداث 08 ماي 1945 م واندلاع الثّورة التّحريريّة عام 1954م؛ حيث أنّه حلّل ما كان يراه سائدا في المجتمع الجزائريّ آنذاك. ذكر مالك بن نبي في مقدّمة الرواية أنّه كتبها في غرفة فندق بين سفرتين متقاربتين بمدينة عنّابة، وفي رسالة قصيرة إلى النّاشر يتحدّث عن روايته التي صنعها بالرّغم من أنّه كتبها في عجالة، وذكر أنّ القصّة واقعيّة، خاصّة فيما تعلق بالشخصيتين المحوريتين اللّتين قامت حولهما القصّة، وهما الفحّام والطفّل اللّدان عاشا في مدينة عنّابة؛ أمّا الجانب الخياليّ الوحيد فيتمثّل في الصّلة التي وضعها بين الأشخاص في المكان والزّمان¹⁸.

6. تحليل ثقافي مقتضب لرواية "لبيك حج الفقراء":

1.6 العنوان:

يعدّ العنوان عتبة من العتبات التي نلج بها إلى مكنونات النصّ، فهو في علاقة اتّصال مباشرة بالمتن وبالعتبات النصّية الموازية ' la paratextualite ' من غلاف، إهداء، عتبة الاستهلال وغيرها؛ لذلك صنّفه 'جيرار جينيت 'Gérard Genette' ضمن: "النصوص الخارجية أو الموازية ' إنَّ التَّمط الثّاني ' paratexte ' يكون عموماً أقلّ وضوحاً وأكثر بعداً ويقيّمها النصّ في العنوان، العنوان الصّغير، العناوين المشتركة، المدخل، الملحق ..."¹⁹.

فالعنوان يمثّل "هويّة صاحبه، فهو حلقة الوصل التي تعمل على توجّسه من المتلقّي"²⁰، ولا شكّ أنّ عنوان الرواية التي بين أيدينا عبارة عن عتبة نصّية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمتن.

1.1.6 العنوان من ناحية المبنى:

هو عبارة عن جملة اسميّة مكوّنة من ثلاثة أسماء:

لبَيْك: مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره 'ألبي' منصوباً وعلامة نصبه الياء لأنّه ملحق بالمتنّ وهو مضاف والكاف مضاف إليه.

حجّ: مفعول به لفعل محذوف تقديره 'نوبنا أو نريد' منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره وهو مضاف.

الفقراء: مضاف إليه مجرور وعلامة جرّه الكسرة الظاهرة على آخره .

2.1.6 العنوان من ناحية الدلالة:

في هذا العنوان نسق ثقافيّ ألا وهو الدّين، فالحجّ لم يشرّع في الدّين الإسلاميّ فقط بل عرفته المعتقدات الأخرى، فقد كان عرب الجاهليّة مثلاً يحجّون إلى مكة قبل الإسلام، وفي هذا العنوان يشير مالك بن نبي دلالات عديدة من بينها الحاجة للدّين في الحياة، فالدّين هو النّجاة وهو الخلاص، وإنّ الشّعب الجزائريّ متمسّك بهذا الدّين الذي يرى فيه طوق النّجاة ن ولعلّ ما يميّز التّلبية أنّها: "جعلت في الإحرام شعاراً للانتقال من حال إلى حال ومن منسك إلى منسك كما جعل التّكبير في الصّلاة سبباً للانتقال من ركن إلى ركن"²¹. فكأنّ الكاتب يدعو إلى الانتقال من حال إلى حال أفضل،

من الفقر الروحي الذي تعاني منه الأمة الإسلامية جمعاء لا الأمة الجزائرية فقط، إلى الغنى المادي والروحي، ولا يتم ذلك إلا بالرجوع إلى الله تعالى.

2.6 الشخصيات:

1.2.6 الشخصيات الرئيسية:

في هذه الرواية تمّ التصريح ببطلها: " ولم يكن لديّ المتسع من الوقت لأتعرف على الأشخاص بصورة كافية، خصوصا الشخصيتين اللتين قامت حولهما القصة وهما الفخّام والطفل اللذان عاشا في مدينة عنابة"²².

- شخصية 'إبراهيم':

تعدّ هذه الشخصية المحرك الأساسي لأحداث القصة من البداية إلى النهاية؛ فهي الشخصية الحاضرة دائما، كما أنّه في الثلاثين من عمره، ويملك ملامحا طيبة، يبدو عليه الفقر جليّ من خلال مظهره، يحب الخير لغيره رغم عاداته وسلوكاته السيئة كإدمانه على السكر الذي يمثّل دلالة ثقافية لصفة السكر التي حملتها الشخصية البطلة وهي صفة الذّوبان في ثقافة الآخر، أمّا مهنة الفخّام فتدلّ على سواد الجانب الذي تعيشه طبقة الشباب اجتماعيًا ونفسيًا، هذه الطبقة الشبابية غير راضية عن وضعها رغم استسلامها له . ومن هنا نرى تحوّل في شخصية إبراهيم فقد تحوّل من فخّام سكير يلقّب بـ 'بوقرعة' إلى إبراهيم الذي يُنادي بـ 'عمّي الحاج إبراهيم' .

- شخصية الطفل 'هادي':

اختار مالك بن نبي الطفل هادي من فئة الأطفال وإبراهيم من فئة الشباب فمزج بذلك بين مختلف الفئات العمرية لهدف معيّن ألا وهو أنّ أيّ مجتمع يرتكز خاصة على هاتين الفئتين: الشباب (جيل اليوم)، والأطفال (جيل الغد)، وهو يعني بذلك الحاضر والمستقبل .

'هادي' طفل صغير في العمر، يعاني الفقر الشديد حتّى أنّ كلّ من يراه يشفق عليه، يعيش وسط عائلة فقيرة: "كان والده يذهب كلّ صباح إلى المدينة، أو إلى مزارع الكروم المجاورة للعمل ... أمّا والدته فقد كانت معه ترعاه وتحرس الثّلاث أو الأربع دجاجات اللّاتي كان يبضهنّ بعضا من المال لشراء الملابس للعائلة الفقيرة ..."²³.

أصبح يتيما بعد مدّة من الزّمن، فصار يسافر مع الحجّاج دون أوراق ودون أن يدفع تكلفة السّفر، وهذا يرمز إلى طموح أطفال هذه الفترة خاصّة رغم الصّعوبات الّتي كانت تواجههم.

2.2.6 الشخصيات الثّانوية:

لا نقل الشّخصيات الثّانوية قيمة عن نظيرتها الرّئيسية كونها ذات أهميّة قصوى في تفعيل المحتوى السّرديّ؛ وذلك من خلال العلاقات الّتي تربطها مع الشّخصيات الرّئيسية في القصة، وتكثر العوامل المتداخلة في دراسة الشّخصية: "سواء كانت عوامل شخصيّة أم اجتماعيّة ممّا يؤدي إلى صعوبة تحليل الشّخصية"²⁴. ومن هنا فقد كانت الشّخصيات الثّانوية الّتي وظّفها مالك بن نبي في روايته هاته ذات دور كبير فكأنت على شكل أنساق ثقافيّة تحمل دلالات كثيرة .

- شخصيّة العمّ 'محمد':

وظّف مالك بن نبي شخصيّة العمّ 'محمد' ليدلّ بها عن فئة الشّيوخ وهي الفئة الّتي يقتدي بها الأجيال القادمة، فالعمّ 'محمد' شيخ كبير في السنّ: "له لحية بيضاء وحول عنقه سبحة مثل هؤلاء الذين نجدهم على درج مدخل جامع الباي ينتظرون نداء المؤذن وهم يحذقون بمتعة في الغادي والرّائح في السّاحة"²⁵. فلحيته البيضاء تدلّ على حكمته ووقاره، أمّا سبحته حول عنقه فتدلّ على تمسّكه بدينه. الشّيخ محمد يساعد غيره ويحترمهم فهذه الشّخصيّة تمثّل أصالة الجزائر الّتي تنير الطّريق لمستقبل الشّباب والجزائر عامّة.

- شخصيّة العمّة 'فاطمة':

هي زوجة العمّ 'محمد' وقد كانت بمثابة الأمّ لإبراهيم؛ فعندما أراد إبراهيم الحجّ قامت بإعداد المؤونة له: "كانت زوجة الشّيخ في انتظارهما وقد عبّقت الغرفة الّتي خصّصت لاستضافة الحاج بالبخور، كانت تكنّ له مشاعر أمومة لأنّها رأته وهو يكبر وكذلك بسبب أهله الطّيبين الذين رافقتهم حتّى آخر لحظة في حياتهم"²⁶. وهي المرأة الّتي تحبّ الخير للجميع، والّتي تمثّل هي الأخرى الأصالة الجزائرية .

- شخصية الصديق:

كانت هذه الشخصية لا تفترق عن شخصية إبراهيم، فهو الآخر كان لا يهتم لا بنفسه ولا بسلوكاته ولا بأخلاقه، وقد أراد أن يتحوّل إلى حال أفضل مثلما فعل صديقه إبراهيم.

- شخصية الزوجة 'زهرة':

زهرة تلك الزوجة الصالحة التي كانت من نصيب إبراهيم السكّير، هذه الشخصية تمثّل المرأة الجزائرية عامّة فهي امرأة تصون بيتها وزوجها وأسرتهما بصفة عامّة، فقد كانت صبورة معه وتحسن معاملته رغم سوء تصرّفاته معها: " هذه الزوجة المخلصة التي اختارها له والداه والتي قاست معه "27. هذا الصبر الذي يمثّل صبر الجزائر وصمودها أمام ضياع شبابها وأمام العدو الفرنسي.

- الجيران:

يمثّل الجيران المجتمع فهم يرون أنّ السكر ثقافة دخيلة؛ لهذا وجب رفضها رفضاً قاطعاً وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على تشبّهم بمبادئهم وأصالتهم التي ترفض أن يندمجوا في ثقافة الغير. فهم يمثّلون النّسق الثقافي للمجتمع، هذا المجتمع هو نفسه الذي تكافل مع إبراهيم واحترمه احتراماً شديداً لمّ صار حاجاً: "لقد أصرّ الجيران على أن يهدوا لك هذه القفّة"²⁸. وهذا يدلّ على طيبهم وعلى حسن أخلاقهم.

- الأطفال:

الأطفال يحترمون من هم أكبر منهم سنّاً، ويجعلونهم قدوة لهم في حياتهم ما دامت الهيبة والوقار، ولكن عندما يغيبان فهم أوّل من يحكم على مكانتك في المجتمع: "عندما يحكم الوسط الاجتماعيّ على شخص ما، فالأطفال هم الذين يصدرون الحكم بشراسة فينعتون المجنون بالمجنون والسكّير بالسكّير"²⁹. فلم يختلف دورهم عن دور الجيران كما أنّهم يشكّلون جزءاً من المجتمع؛ لذلك نبذوا كلّ ما هو دخيل عن تربيتهم وأصولهم وعاداتهم و تقاليدهم التي ورثوها عن أجدادهم وآبائهم. عندما صغر إبراهيم في أعينهم صاروا يستهزؤون به: "فوضعه لديه مرفوض" هذا الوضع المخزي الذي يعيّره به الصّبيان في أزقة بونة بلقب بوقرعة (صاحب قارورة التّبئد)³⁰. بعدما تغيّر إبراهيم تغيّر حكمهم عليه فأصبحوا يحترمونه.

- الحجّاج:

للحجّ مكانة كبيرة في المجتمع الجزائري ولعلّ هذه المكانة الرفيعة ترجع لكون الدين يعدّ سلطة قويّة تتحكّم فيه: "كثير من العائلات تستضيفهم عائلات المدينة ...، فالحجّاج ليس ضيفا عادياّ لذا يجب أن تحفظ أصول الضيافة معه، فحقّ العجائز يخصّصن الضيف باستقبال حارّ مفعم بأجواء عائلية، وكلهنّ حزن شديد لأنهنّ لم يفزن بسعادة (غسل عظامهنّ) بماء زمزم"³¹.

فللحجّ وزن كبير وقيمة عظيمة ليس في الجزائر فقط بل عند كافة الشعوب الإفريقيّة المسلمة، رغم أنّها عانت من ويلات الاستعمار إلا أنّها بقيت محافظة و متمسكة بدينها الإسلاميّ. كما يعدّ الحجّ رحلة للتبادل الثقافيّ، فهو ليس رحلة روحية فقط بل رحلة ثقافية يتعرّف فيها المسلمون على بعضهم البعض من عدّة جوانب كالعرق والثقافة: " كان إبراهيم على عجلة من أمره ليختلط مع باقي الحجّاج الآتين من أمصار أخرى. لقد سمع منذ زمن ليس ببعيد عن أهل (حاوة) الصّالحين، عن (الهنود المترفين)، عن (الصنّيين الغامضين)..."³². كذلك يعدّ الحجّ رحلة اجتماعية تتضمّن معاني التّعاون والتّعامل الحسن، والإخاء.

7. خاتمة:

بعد التّعرّض للحياة الفكرية للمفكّر الجزائريّ الفدّ 'مالك بن نبي'، والذي عكف على دراسة وتحليل أسباب تخلف المجتمعات العربية والإسلامية عامّة، وكذلك في البحث عن حلول تمكّن هذه المجتمعات من اللحاق بالركب الغربيّ المتطوّر، ومن خلال القراءة الثقافيّة لعنوان وشخصيات روايته 'لبيك حجّ الفقراء' توصلنا إلى مجموعة من التّناج نذكرها كالآتي:

- إنّ الفيلسوف 'مالك بن نبي' يعدّ من المفكّرين العرب والمسلمين الأوائل الذين جنحوا لدراسة مفهوم الثقافة ببعدها الحضاريّ، ودورها الفعّال في تطوّر المجتمعات، وبذلك يكون أوّل مفكّر عربيّ وإسلاميّ يضع الحجر الأساس للتّقد الثقافيّ العربيّ. كما أنّه من المفكّرين الذين آمنوا بقدرات الشّباب وضرورة توفير كلّ الوسائل والتسهيلات لهم للّهوض بأمّتهم.

- إنَّ عنوان رواية 'لبيك حجّ الفقراء' عنوان معبر عن الحاجة الماسّة للدين في الحياة، والذي لا يمكننا التقدّم والتطوّر إلّا بفضلها؛ فالدين حياة وعلم وأخرة.

- إنَّ شخصيات رواية 'لبيك حجّ الفقراء' شخصيات متنوّعة، تتنوّع بين الصّغير والكبير، والمؤمن والعاصي، كما أنّ حال العاصي لا يمكن أن يدوم للأبد سيأتي يوم ويتغيّر للأحسن، وهذا هو حال البلاد المتخلّفة فلا ينبغي لها أن تبقى في تخلّفها بل عليها أن تبحث عن سبل التقدّم والتطوّر ولا سبيل إلى ذلك إلّا بالتّمسك بالهويّة العربيّة الإسلاميّة.. والانفتاح على ثقافة الغرب وذلك بأخذ ما يلائم طبيعتنا الإسلاميّة وترك ما يسيء لمجتمعاتنا.

8. قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم النويري: أضواء على حياة المفكّر الجزائريّ العالميّ مالك بن نبي، <http://www.alnoor.se/article.asp?id=40576>
2. جميلة بگوش، معالم النقد الثقافيّ في الجزائر، دار خيال للنشر والتّرجمة، برج بوعريّج، الجزائر، 2021.
3. جبرار جينيت، طروس 'الأدب على الأدب' ضمن كتابات دراسات في النّصّ والتّناسيّة، ترجمة محمّد خير البقاعي، مركز الغنماء الحضاريّ، ط1، حلب، 1998.
4. شادية شقروش، سيميائيّة الخطاب الشعريّ في ديوان 'مقام البوح' للشّعب عبد الله، عالم كتب الحديث، مصر، 1994.
5. الظّاهرة القرآنيّة، مالك بن نبي، الظّاهرة القرآنيّة، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سوريا، 2006.
6. عبد بن عبد المحسن، دروس عقديّة مستفادة من الحجّ، دار ابن عقّان، ط1، جمهوريّة مصر العربيّة، 2000.
7. كامل محمّد محمّد عويضة، علم النّفس بالشّخصيّة والفكر، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1996.
8. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، الجزائر، دار الوعي، 2013.

9. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط12، دمشق.
10. مالك بن نبي، لبّيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا، 2019.
11. مالك بن نبي مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط4، دمشق، 2000.
12. محمّد الهادي الحسني، مالك بن نبي، لمحات من حياته وقبسات من فكره، مجلة الموافقات، الجزائر، العدد 03، 1994.
13. موقع المسألة الثقافيّة من إستراتيجية التّجديد الحضاريّ عند مالك بن نبي.
14. ناظم عودة، تكوين النظريّة في الفكر الإسلاميّ والفكر العربيّ المعاصر، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، لبنان، 2009.

*** **

9. الهوامش:

- ¹ محمّد الهادي الحسني، مالك بن نبي، لمحات من حياته وقبسات من فكره، مجلة الموافقات، الجزائر، العدد 03، 1994، ص: 279-283.
- ² إبراهيم النوري: أضواء على حياة المفكر الجزائريّ العالميّ مالك بن نبي. تاريخ النشر 09-02-2009. اطّلع عليه بتاريخ 25-01-2023. <http://www.alnoor.se/article.asp?id=40576>.
- ³ د جميلة بكوش، معالم التّقد الثقافيّ في الجزائر، دار خيال للنّشر والتّرجمة، برج بوعريّج، الجزائر، 2021، ص 14.
- ⁴ ناظم عودة، تكوين النظريّة في الفكر الإسلاميّ والفكر العربيّ المعاصر، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط1، لبنان، 2009، ص34.
- ⁵ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط12، دمشق، ص13.
- ⁶ المرجع نفسه، ص13.
- ⁷ المرجع نفسه، ص 26.
- ⁸ مالك بن نبي، " (مشكلة الثقافة)", الجزائر، دار الوعي، 2013 ص 74.
- ⁹ مالك بن نبي مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط4، دمشق، 2000، ص 90-91.
- ¹⁰ ينظر موقع المسألة الثقافيّة من إستراتيجية التّجديد الحضاريّ عند مالك بن نبي، ص 14.
- ¹¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط 4، دمشق، 2000، ص 82.
- ¹² المرجع نفسه، ص86.

- ¹³ زيدان خوليف من المهتمين بفكر مالك بن نبي، قدّم أطروحته بالفرنسية عام 2006 تحت عنوان 'حياة مالك بن نبي من 1905-1973' تحت إشراف البروفيسور برهان غليون بجامعة السربون الجديدة باريس 3.
- ¹⁴ مالك بن نبي، لبّيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، 2019، ص 26.
- ¹⁵ عمر مسقاوي من مواليد 1935، مفكر لبناني لازم مالك بن نبي وكان تلميذه الوفي، تولى وفقاً لوصيته نشر كتبه وترجمة بعضها إلى العربية.
- ¹⁶ مالك بن نبي، لبّيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، ط4، دمشق، سوريا، 2019، ص 10.
- ¹⁷ ينظر آراء الدكتورين محمود محمّد شاكر، ومحمّد عبد الله دراز في تقديمهما لكتاب الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصّبور شاهين، دار الفكر، ط6، دمشق، سوريا، 2006، ص 96.
- ¹⁸ المرجع نفسه، ص 130، وينظر، لبّيك، ص 24 وما بعدها.
- ¹⁹ جبرار جينيت، طروس 'الأدب على الأدب' ضمن كتابات دراسات في النصّ والتناصية، ترجمة محمّد خير البقاعي، مركز الغنماء الحضاري، ط1، حلب، 1998، ص 127.
- ²⁰ شادية شقروش، سيميائية الخطاب الشعري في ديوان 'مقام البوح' للشعب عبد الله، عالم كتب الحديث، مصر، 1994، ص 25.
- ²¹ عيد بن عبد المحسن ن دروس عقديّة مستفادة من الحجّ، دار ابن عقّان، ط1، جمهورية مصر العربية، 2000، ص 39.
- ²² مالك بن نبي، لبّيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، ط1، دمشق، 2009، ص 24.
- ²³ المرجع نفسه، ص 128.
- ²⁴ كامل محمّد محمّد عويضة، علم النّفس بالشخصية والفكر، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1996، ص 37.
- ²⁵ مالك بن نبي، لبّيك حجّ الفقراء، ترجمة زيدان خوليف، دار الفكر، ط1، دمشق، 2009، ص 33.
- ²⁶ المرجع نفسه، ص 68.
- ²⁷ المرجع نفسه، ص 71.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص 70.
- ²⁹ المرجع نفسه، ص 50.
- ³⁰ المرجع نفسه، ص 49.
- ³¹ المرجع نفسه، ص 29.
- ³² المرجع نفسه، ص 91.